وذكر ابن معصوم ان (اول من اخترعه وسماه بهذا الاسم ابن المعتز) وحق لابن المعتز ان يوصف بأنه قد تسلم زعامة المدرسة البيانية في الحكم على الادب وفي تذوقه(٢٢) وان كتابه محاولة فريدة لارساء اصول البلاغة العربية على اسس عربية صريحة(٢٣) وعدّة عبد الحميد العبادي مع قدامة بن جعفر انهما الاثنان اللذان وضعا علم البديع(٢٤) .

سبب تأليفه الكتاب :

فهم بعض المحدثين ان سبب تأليف كتاب البديع هو رغبة ابن المعتز في الدفاع عن القدماء ، وبيان سبقهم الى البديع لئلا يتوهم الفضل للمحدثين فقط وهو رأي يعتمد على ظاهر قول ابن المعتز في مقدمة كتابه : (قد قدمنا في ابواب كتابنا هذا بعض ماجاء في القرآن واللغة والحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم واشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم ان بشارا ومسلما وابا نؤاس ، ومن تقيلهم ، وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه . ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه ، واكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، واساء في بعض ، وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف)(٢٥) .

لقد فهم كثير من الباحثين كلام ابن المعتز هذا على ظاهره فرأوا انه وضع كتابه ليبطل دعوى الشعراء المحدثين الذين كانوا يزعمون ان البديع من صنعهم واختراعهم وان المسالة في حقيقتها ليست مسألة محسنات تحصى وتستعمل وانما هي خصومة بين القدماء والمحدثين وكتاب ابن المعتز على هذا دفاع عن القدماء(٢٦) . وان الذي بعث ابن المعتز على بذل هذا الجهد في البحث والتنقيب هو عصبيته لقومه ودفاعه عن عشيرته يقول شوقي ضيف ذاهبا هذا المذهب في تعليل تأليف ابن المعتز لكتابه : ـ

---

(٢١) انوار الربيع ١ / ٢٩

(٢٢) دراسات في الادب / طبانة ٢٥٦

(٢٣)النقد المنهجي لمندور ٢٤ . بلاغة ارسطو / ابراهيم سلامة ٧٠ وراجع ايضاً اثر القرآن في النقد محمد زغلول سلام ص ٢٢٤ .

(٢٤) نقد النثر (المقدمة) ص ٣٩

(٢٥) البديع ٦١١

(٢٦) دراسات طبانة ٢٦٧ وانظر النقد الادبي عتيق ٢٦٧

(فغايته من الكتاب التي يعلنها فيه اعلانا دون مواربة هي ان يثبت ان المحدثين لم يخترعوا البديع الذي يلهجون به)(٢٧) . ورأى ايضا ان الذين زعموا ان البديع هو من اختراع المحدثين هم اما متفلسف متعصب لم يتعمق الادب العربي واصوله واما شعوبي ممن يغمطون العرب القدماء حقهم وينكرون عليهم كل فضل فتصدى ابن المعتز لهم ينقض دعواهم(٢٨) .

وهكذا نجد باحثا اخر وهو احسان عباس يرى في كتاب ابن المعتز صورة الصراع بين القديم والحديث . ولكن ابن المعتز وقف فيه الى جانب الشعر القديم دون المحدث (لان الروح التي املت الكتاب كانت تمثل جانبا من الحركة النقدية في القرن الثالث نحو طريق معكوس . فبدلا من انصاف الشعر المحدث ذهب ابن المعتز ينصف القديم وعن هذا الطريق اكد ان البديع لم يكن مستحدثا وانما الفضل للقدماء(٢٩) .

على ان هناك من خالف هذه الاراء جميعا في عد كتاب البديع من الكتب المؤلفة دفاعا عن المحدثين واحتجاجا للبديعيين حين اثبت ان البديع معروف في العربية منذ العهد القديم(٣٠) .

ويرى د . داود سلوم ان كتاب البديع دفاع عن الشعر المحدث الا ان ابن المعتز سلك فيه الباب الخلفي عن قصد او غير قصد (فهو وان كان في الواقع يريد ان ينفي ادعاء المحدثين حق ابتكار ماسماه المحدثون البديع قد اكد حقيقة اخرى من حيث لايشعر هي ان الشعر الحديث لم يخرج على اصول العربية وعمود الشعر في استعمال البديع . واذا كان قد اسرف المحدثون فهو شيء اخر .(٣١)

ومن خلال دراستنا لكتاب ابن المعتز هذا . وارائه النقدية الاخرى وجدناه قد عمد الى تأليف كتاب البديع دفاعا عن الشعر المحدث بوعي علمي ، ودافع ادبي خطط له فوجد ان دوره لايتم الا عن طريق ترسيخ هذا الفن الذي عيب على المحدثين استعماله بوضع اصوله ، وارجاعه الى القدماء والاوائل الذين ملكوا الساحة الادبية وحكموا آراء النقاد والمتعصبين ضد الشعر المحدث .

---

(٢٧) البلاغة تطور وتاريخ شوقي ضيف ٦٧

(٢٨) المصدر نفسه

(٢٩) تاريخ النقد / احسان عباس ١٢٢

(٣٠) الصبغ البديعي في اللغة العربية احمد ابراهيم موسى ـ وزارة الثقافة ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ١٣٠

(٣١) مقالات في تاريخ النقد ١٧٣

ان دراسة سبب تأليف كتاب البديع يجب الا تنفصل عن شخصية ابن المعتز الشاعر وعن مواقفه النقدية الاخرى وتآليفه التي يستنتج منها موقف نقدي . فأبن المعتز من انصار المحدثين ونجد صحة هذا الرأي عند دراستنا لكتابه الاخر طبقات الشعراء وهو ميال الى استخدام البديع ميلا يجعل كتابة البديع صدى لشاعريته ومنه الذي اتسم بالتفنن في استخدام البديع والمحسنات اللفظية وهو ميل عابه كثير من النقاد على شعراء زمانه واخذوا عليهم افراطهم فيه فرأى ابن المعتز ان يدافع عن الشعراء المحدثين بالتصدي للدفاع عن السمة التي عرفت بها اشعارهم وهي (ايراد البديع والتفنن فيه) ليقول لنا ان البديع ليس بمستحدث ولا بمعيب لان القدماء قد عرفوه . وقد ورد ايضا في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فالكتاب اذن دفاع عن الشعر المحدث . وابراز لاهم قضية شغلت بال النقاد وحكمت مواقفهم منه . كتب ابن المعتز في البديع لئلا يعد البديع عيبا على الشعر المحدث . وبين اقسامه ليحتذى الشعراء المحدثون حذو القدماء في الجيد من البديع وهو في كثرة شواهده التي التي اختارها يدلنا على ذوقه الادبي الرفيع من جهة ، وعلى النزعة العربية الخالصة في التأليف النقدي من الجهة الاخرى . فكتاب البديع يدل على اصوله العربية التي لم تتأثر بعد بالثقافة الاجنبية الامر الذي سنجد خلافه في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر الذي مثل تأثر النقاد العرب بالثقافة اليونانية .

وقد ذكر د . طه حسين قبل نشر كتاب البديع ان به (اثرا بينا للفصل الثالث من كتاب الخطابة لارسوا او بعبارة ادق للقسم الاول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في العبارة)[٣٢] . والكتاب لايؤيد هذا الظن اذ كل مافيه عربي خالص ، وقد الفه ابن المعتز مقاومة لمن يلتمسون قواعد البلاغة في المصنفات اليونانية[٣٣] . ونرى في هذا القول مبالغة مفرطة فأبن المعتز لم يؤلفه مقاومة لتيار الثقافة اليونانية . ولو كان قصده هذا لما احجم عن ذكره والاشارة اليه . ولكنه صرح بما لايقبل الشك بأنه الفه ليثبت ان القدماء عرفوا فنون البديع ، ولو كان ابن المعتز مطلعا على قواعد البلاغة اليونانية لافاد منها متمثلا او مناقشا لاراء فلاسفتها ولكن كتابه ـ كما يبدو من مصادره ـ عربي في اصوله الثقافية عربي في طريقة عرضه ، ومعالجته لانواع البديع ويكفي ان نقارن بينه وبين نقد الشعر لقدامة بن جعفر لتجد الفرق بين المنهجين .

---

(٣٢) انظر مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر .

(٣٣) البلاغة تطور ـ شوقي ضيف ٧٠

وقد رفض د . علي الجندي ان يكون الكتاب متأثراً بالبيان اليوناني (ولو ان الجناس كان منقولا عن اليونان لعثرنا على اثر هذا النقل ولو في مثال واحد)(٣٤) .

ان ميزة كتاب البديع انه ينحو في دراسة الوان البديع وفنونه نحوا تطبيقياً له اثره الكبير في تكوين الملكة والذوق وهو مطبوع بالطابع الادبي الخالص فهو خلو من المصطلحات العلمية وتحديدات المنطقيين العميقة(٣٥) .

لقد خطا ابن المعتز في تأليفه لهذا الكتاب خطوة جديدة في قضية القديم والحديث من الشعر . فبعد ان وصل الشعر المحدث الى مرحلة المطالبة بالمساواة مع القديم والدعوة الى النظر بعين العدل الانصاف عند الجاحظ وابن قتيبة خطا على يد ابن المعتز خطوة جديدة ظهرت في التأليف بأهم قضية تخص الشعر المحدث وهي ما لازم شعر الشعراء من ميزات ، استخدام الفنون البديعية ، والتوسع في استعمال المفردات اللغوية على خلاف ما كان القدماء يستعملونه فتصدى ابن المعتز للتأليف في البديع ليقول ان هذه الظاهرة ليست من ابتكار المحدثين ، وانما سبقهم اليها القدماء فلا داعي لتوجيه سهام النقد ، والعيب عليهم ، ونستطيع ان نجد مثل هذا التأليف فيما اورده ابو العلاء المعري فيما بعد في رسالة الغفران حين نقل لنا لقاءه الخيالي بعنترة بن شداد واحتجاج الاخير على بيت شعر لابي تمام بأنه ليس على ما تعرفه قبائل العرب فيقول وهو ضاحك مستبشر : انما انكرت عليه المستعار بها . وقد جاءت العارية في اشعار كثير من المتقدمين الا انها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن اوس الطائي(٣٦) . فدفاع المعري عن ايراد الاستعارة في شعر ابي تمام بورودها في اشعار القدماء هو دفاع ابن المعتز نفسه عن الشعر المحدث في كتاب البديع دفاع غير مباشر الا انه مقنع مفحم لانصار القديم موجه لاصحاب الشعر المحدث . والكتاب في الوقت نفسه صدى لاسلوب ابن المعتز الشعري وبذا لا يمكن الفصل بين رغبة ابن المعتز في الاساليب البديعية الواردة في اشعاره ، وتصديه للكتابة فيها .

وقد نبه ابو بكر الصولي في خبر نقله الحاتمي في باب احسن ما قيل في بديع الاستعارة الى موقف ابن المعتز الذي ينصر الشعر المحدث ويدافع عن طريقة اصحابه في تفننهم في البديع ، وايرادهم له حين قال :

---

(٣٤) فن الجناس على الجندي ١٧

(٣٥) ابن المعتز / خفاجي ٦٠٤

(٣٦) رسالة الغفران ٢٣٧

(اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند ابي العباس عبد الله بن المعتزّ . وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء الاسلك بنا شعبا من شعابه وارانا احسن ما قيل في معناه)(٣٧) .

وبعد ان ينقل لنا اخبار هذا المجلس . وما ورد فيه من اشعار القدماء والمحدثين ورأي ابن المعتز فيها يختم الصولي الخبر واصفاً علم ابن المعتز في الشعر بقوله (فما احد انصرف من ذلك المجلس الا وقد غمره من بحر ابي العباس في علم الشعر وحسن تصرفه فيه والكلام عليه ما غاض معينه . ولم ينهض الا بعد مازودناه من بره . وملاطفته نهاية ما اتسعت حاله)(٣٨) .

وهكذا نجد ان لابن المعتز موقفا نقديا من البديع والشعر المحدث لايمكن ان يفصل فيه مؤلف من مؤلفاته عن الاخرى . فكلها صادرة عن هذا الموقف . مطبقة لارائه في مناصرة الشعر المحدث . وتبين منهج شعرائه في مناصرة الشعر المحدث . وتبنى منهج شعرائه في التفنن في الصنعة والزخرف اللفظي او المعنوي مشيرا الى افراط المفرطين . كأبي تمام او اخطاء الشعراء في ايرادهم لانواع البديع المقيت .

منهج الكتاب :

قسم ابن المعتز انواع البديع اول كتابه الى خمسة ابواب هي : الاستعار والتجنيس والمطابقة . ورد اعجاز الكلام على ماتقدمها . والباب الخامس هو المذهب الكلامي .

وبعد ان انهى الحديث وشواهده عن هذه الابيات الخمسة اكمل كتابه بعبارة (انتهت ابواب البديع) واشار الى انه الفه سنة اربع وسبعين ومائتين . واول من نسخه منه هو علي بن هارون بن يحيى بن ابي منصور المنجم . واشار ايضا الى انه قد اقتصر بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام . ولا يضيق في المعرفة (فمن احب ان يقتدي بها . ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن اضاف من هذه المحاسن او غيرها شيئا الى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره)(٤٠) .

---

(٣٧) حلية المحاضرة ١ / ١٣٥ ـ ١٣٨ تحقيق جعفر الكتاني

(٣٨) نفسه

(٤٠) البديع ٦٨٩